

ذو القرنين

عناصر الموضوع

٢٦٢	التعريف بذو القرنين
٢٦٥	ذكر ذي القرنين في القرآن الكريم
٢٦٦	مناسبة قصة ذي القرنين وسبب نزولها
٢٧٠	قصة ذي القرنين
٢٧٦	الدروس من قصة ذي القرنين
٢٨١	لمسات بيانية في قصة ذي القرنين

التعريف بذى القرنين

أولاً: اسمه:

اختلف فيه على أقوال كثيرة، فقليل: هو الإسكندر المقدوني. وهناك من زعم أنه قورش الفارسي، أو دارا الفارسي، أو ملك من ملوك اليمن، أو ابن فرعون مصر.

ويرى أبو الكلام آزاد في كتابه: ويسألونك عن ذي القرنين، أنه قورش امبراطور فارس الذي غزا بلاد اليونان، وأنه كان عادلاً.

بينما يرى البعض أنه الإسكندر المقدوني الذي غزا بلاد فارس، وكان عادلاً. قال المسعودي: «الإسكندر وذو القرنين: وقد تنازع الناس فيه: فمنهم من رأى أنه ذو القرنين، ومنهم من رأى أنه غيره، وتنازعوا أيضًا في ذي القرنين: فمنهم من رأى أنه سمي بذى القرنين لبلوغه أطراف الأرض، وأن الملك الموكل بجبل قاف سماه بهذا الاسم، ومنهم من رأى أنه من الملائكة»^(١).

قلت: جبل قاف هذا من أخبار الإسرائيليات التي لا دليل عليها، ولا مستند من كتاب، أو سنة أو أثر صحيح، والقول بأنه ملك من الملائكة قول بعيد غريب، بل هو من البشر.

وقال القزويني: «وذكر بعض النساب أن أفريدون هو ذو القرنين الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، لأنه ملك المشرق والمغرب، وأمر بعبادة الله تعالى، وكان ذا عدل وإحسان»^(٢).

والمأمل في هذه الأقوال وما استندت إليه يجدها لا أصل لها في الكتاب أو السنة، كما أنها مبنية على الظن والاحتمال، فضلاً عن أن ذو القرنين كان مؤمناً موحداً.

وقيل: كان نبياً من الأنبياء، فقد روى ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد الله بن عمرو قال: ذو القرنين نبي^(٣).

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ذو القرنين نبي^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أدري أتبع لعيناً كان أم لا، وما أدري ذو القرنين نبياً كان أم لا، وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم

(١) مروج الذهب، المسعودي ١/ ١٢٧.

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني ١/ ٩٢.

(٣) المصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٦٨.

(٤) انظر: الدر المشور، السيوطي ٩/ ٦٣٢.

(١) لا.

وهذا الحديث إن صح ففيه ردٌّ على من قال بنبوذة ذي القرنين.
والذي يتجلى لنا من خلال حديث القرآن عنه أنه ملك مؤمن على علمٍ وصلاحٍ، مكن
الله له، فسعى جاهداً ومتجرداً لنشر الحق والعدل.

والذي يعني أن نتدبر في قصته، ونستخلص منها الدروس والعبر في الدعوة والإصلاح
والقيادة والإدارة والسياسة والقضاء. ثم إن السؤال ليس عن شخص ذي القرنين، وإنما عن
حياته وجهاده وأمجاده.

قال البغوي: «والأكثر على أنه كان مَلِكًا عادلاً صالحاً» (٢).

قال ابن القيم: «الإسكندر المقدوني، وهو ابن فيلبس، وليس هو بالإسكندر ذي القرنين
الذي قص الله تعالى نبأه في القرآن، بل بينهما قرون كثيرة، وبينهما في الدين أعظم تباين،
فدو القرنين كان رجلاً صالحاً موحداً لله تعالى، يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر، وكان يغزو عباد الأصنام، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وبنى السد بين
الناس وبين يأجوج ومأجوج.

وأما هذا المقدوني فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح
نحو ألف سنة وستمئة سنة، والنصارى تؤرخ له، وكان أرسطاطاليس وزيره، وكان مشركاً
يعبد الأصنام، وهو الذي غزا دارا بن دار ملك الفرس في عقر داره، فثل عرشه ومزق ملكه
وفرق جمعه، ثم دخل إلى الصين والهند وبلاد الترك فقتل وسبى. وكان لليونانيين في دولته
عز وسطوة بسبب وزيره أرسطو، فإنه كان مشيره ووزيره ومدير مملكته.

وكان بعده لليونان عدة ملوك يعرفون بالبطالسة، واحدهم بطليموس، كما أن كسرى
ملك الفرس، وقبصر ملك الروم، ثم غلبهم الروم واستولوا على ممالكهم، فصاروا رعية
لهم وانقرض ملكهم، فصارت المملكة للروم، وصارت المملكة واحدة، وهم على شركهم
من عبادة الأصنام، وهو دينهم الظاهر ودين آبائهم» (٣).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، رقم ٤٠٥، ١٤/٢.

قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.
ولم يتعقبه الذهبي.

وصحح البخاري إرساله في التاريخ الكبير ٥٣/١.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢١٢/٣.

(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ٢٦٤/٢.

وأثبت ابن عاشور أنه ليس إسكندر المقدوني، قال: «لأنه لم يكن ملكًا صالحًا، بل كان وثنيًا، فلم يكن أهلاً لتلقي الوحي من الله، وإن كانت له كمالات على الجملة، وأيضًا فلا يعرف في تاريخه أنه أقام سدًا بين بلدين»^(١).

وذكر أبو السعود أقوالاً عديدة في سر تسميته بذي القرنين، أكتفي بذكر أقربها للصواب، قال: «واختلف في وجه تسميته بذي القرنين، فقيل: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها. وقيل: لأنه ملك الروم وفارس. وقيل: الروم والترك. وقيل: لأنه كان في تاجه ما يشبه القرنين. وقيل: لأنه كان له ذؤابتان. وقيل: لقب به لشجاعته»^(٢).

ثانيًا: صفات ذي القرنين:

قال تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣-٨٤].

ذو القرنين كان عبدًا صالحًا، وقائدًا حكيمًا محنكًا، وملكًا عادلاً، جمع الله له بين الصلاح والملك والعلم والهمة العالية في إقامة العدل ونشر الخير، والتيسير على الخلق، أخذ بالأسباب، بل طورها حتى مكن الله له.

قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۚ فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤-٨٥].

مكن الله له في الأرض، ووهبه أسباب النصر والتمكين، وأصول السياسة وفنون التدبير، فأحسن استغلال هذه المنح والمواهب على أتم وجه، بل جعلها ركيزةً ومنطلقًا إلى ريادة الكون بالعلم والإيمان، والعدل والإحسان.

مكن له صاحب العظمة والسلطان تمكينًا عظيمًا في أنحاء المعمورة، وآتاه من الأسباب ما يحتاج إليه في توطيد ملكه وبسط سلطانه، وكبت أعدائه وتحقيق أهدافه.

قال ابن عاشور: «وجعل خبر ذي القرنين تلاوةً وذكرًا للإشارة إلى أن المهم من أخباره ما فيه تذكير، وما يصلح لأن يكون تلاوةً حسب شأن القرآن، فإنه يتلى لأجل الذكر، ولا يساق مساق القصص»^(٣).

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٢٣.

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/٢٤٠.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/١٢٥.

ذكر ذي القرنين في القرآن الكريم

ورد ذكر (ذو القرنين) عليه السلام في القرآن الكريم (٣) مرات، في سورة الكهف.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في سورة الكهف.

الآيات	السورة
٩٨-٧٣	الكهف

مناسبة قصة ذي القرنين وسبب نزولها

أولاً: مناسبة القصة:

تتجلى لنا المناسبة بين هذه القصة والقصص التي سبقتها، وبين القصة ومحور السورة ومقصودها:

فبعد الحديث عن رحلة موسى مع الخضر وما انطوت عليه من عجائب وآيات، وما تفتقت عنه من فوائد وثمرات، وما أسفرت عنه من عبر وعظات، يأتي الحديث عن قصة أخرى عجيبة، قصة ذلك الرجل الصالح الذي مكن الله له، وهياً له الأسباب فأخذ بها، واجتهد في استثمارها وتطويرها، فطوف في الأرض، وجال في أقطارها، قائداً ظافراً، وحكماً عادلاً، وسلطاناً قوياً، وعبداً شكوراً، فملاً الدنيا عدلاً ونوراً.

طاف موسى عليه السلام طلباً للعلم النافع، وطاف الخضر بأمر الله تعالى حاملاً لواء الجهاد وراية الإصلاح والتغيير، كذلك طاف ذو القرنين بجنده وعتاده، لينشر العدالة في ربوع الكون، ويبلغ دعوة الحق، ويصحح المفاهيم، ويقيم الموازين القسط، ويرسخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة. قال البقاعي: «ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنها طواف في الأرض لطلب العلم، عقبها بقصة من طاف الأرض لطلب الجهاد، وقدم الأولى إشارة إلى علو درجة

العلم؛ لأنه أساس كل سعادة، وقوام كل أمر»^(١).

كذلك تضعنا الآيات أمام مقارنة بين صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه وجحد النعمة وتمادى في الضلال، وبين صاحبه الذي يذكره بالله ويحذره من عقابه، وبين ذي القرنين الذي يتذكر دائماً فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائماً بحمده تعالى على ما أولاه من النعم وأسده من الكرم، ويوظف هذه النعم في نشر الحق والفضيلة في أرجاء الأرض.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْكَ رَبِّي وَلَا نُؤْتِيكَ بِهِ بَرِيًّا أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَكْرِنًا أَقْلَ مِنْكَ مَا لَوْ لَدَا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف: ٣٥-٣٩].

أما ذو القرنين فإنه نموذج رائع للملك الصالح المتعفف الذي مكنه الله في الأرض فأقام ميزان العدل والإحسان، وأزال سلطان الكفر والطغيان، وحمل راية الحق ومصابيح الهدى، وعاش الناس في عهده حياة آمنة مطمئنة. فستان بين عهدين : عهد ساد فيه

(١) نظم الدرر ٤/ ٥٠١.

قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعَزَّ لَتْموهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأَى إِلَى الْكَهْفِ بِنَشْرٍ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ [الكهف: ٩-١٦].

وهكذا نجد السورة الكريمة تبرز لنا طريق النجاة من جميع الفتن، فتنة السلطان وفتنة الأهل والعشيرة وفتنة المال وفتنة الولد وفتنة العلم وفتنة إبليس اللعين وفتنة القوة والتمكين من خلال قصة ذي القرنين، وفتنة يأجوج ومأجوج وفتنة اتباع الأهواء والاعتزاز بزخرف القول، مما يتواكب مع خواص السورة وفضائلها وعصمتها لتأليها من الفتن الحوالمك.

لما بين الله عز وجل أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والامتحان الذي يبرز معادن الناس، ويجلي عن قصدهم وهمتهم نحو العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِمَنَّا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝﴾ [الكهف: ٧-٨].

لما بين الله تعالى ذلك ضرب أمثلة تكشف عن موقف الناس من زينة الدنيا، فبدأ بقصة أصحاب الكهف الذين لم يغتروا بزينة الشباب وزينة الأهل والعشيرة

الكفر والفساد، وعهد أشرقت فيه شمس الهداية وأضاءت أنوار العدالة. مملكة كافرة تجعل الكفر لها دستورًا وسياسة، وملك غاصب طاغية، ومملكة مؤمنة تجعل الإيمان لها عصمة ومنهاجًا ونورًا وسراجًا وبضدها تبيين الأشياء.

ومن أوجه المناسبة بين قصة أصحاب الكهف والهدف الرئيسي لسورة الكهف أنها خطت لنا طريق النجاة من الفتن، وأوردت نموذجًا عمليًا يحتذى به، حيث تعرض الفتية لفتنة عظيمة عصمهم الله منها، حين سعى الملك إلى فتنهم في دينهم واستغل سلطانه في مساومتهم على الحق وإغرائهم بكل المغريات، كما استخدم فتنة التهديد والوعيد، فعصمهم الله من كل تلك الفتن، لما خلصت نيتهم وصفت سريرتهم وقويت عزميتهم وصدق توجههم إلى الله.

قال تعالى: ﴿أَمَرُ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝١ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبْلُوهُمْ أَيُّ الْمَرْءِينَ أَحْسَنُ لِمَا لَيْسُوا أَمَدًا ۝١٢ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ

وزينة الأبهة والسلطان، بل تركوا كل هذه الملذات، وأعرضوا عن جميع الإغراءات، وهجروا الأهل والخلان في سبيل الله جل في علاه.

ثم جاءت قصة صاحب الجنتين الذي غره المال ولم يحمد الله عليه، بل ازداد بطراً وأشرًا، في حين نجح صاحبه في الابتلاء حيث عرف حقيقة هذه الدنيا الفانية، فكان له ناصحًا أمينًا وواعظًا بليغًا.

ثم يأتي التعقيب على هذه القصة مبيّنًا حقيقة الدنيا الفانية، وما فيها من زينة تسلب القلوب وتأسر النفوس، وتصرفها عن غاية وجودها وعاقبة أمرها.

وإذا كان هناك من يغتر بالمال أو بالولد، فإن هناك من يغتر بالعود الكاذبة والأمانى الباطلة التي يماني بها إبليس اللعين، هذا العدو القديم الذي أظهر عداوته قديمًا يوم أن امتنع عن السجود لآدم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

ومن أشد أسلحة إبليس اللعين سلاح التزيين، فكم من معصية زينها، وكم من بدعة حسنها، وكم من طاعة صرف الناس عنها، وكم من ضلالة زخرفها، وكم من توبة

سوّفها.

ثم يورد لنا السياق حقائق ساطعة، وسننًا ريبانية، وقضايا عقدية حول الألوهية والرسالة واليوم الآخر، وسنن الله الماضية والجارية في الأمم، ومن الناس من يغتر بنعمة العلم، بل وربما ظن أنه أعلم الناس، وهنا تأتي قصة موسى والخضر عليهما السلام؛ لتبين أن العالم مهما بلغ من العلم، فإن هناك من هو أعلم منه، ومهما أوتينا من العلم فما قيمته وما قدره أمام علم علام الغيوب!

ثم يضرب الله مثلاً لمن لم يغتر بالقوة والسلطان العبد الصالح ذو القرنين الذي وظف ملكه وسلطانه في نشر الدين ورفع الظلم عن المظلومين ورد الطغاة الباغين، وكان كلما جدد الله له نعمة جدد لها شكرًا، وردها إلى المنعم عز وجل.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

فلنقارن بين من اغتر بجنتيه وجحد النعمة وتمادى في الضلال، وبين من يتذكر دائمًا فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائمًا بحمده تعالى.

كما تدور هذه القصة مع المحور العام للسورة: العواصم من الفتن، فتبرز لنا أهمية

فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم. فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟

قال فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبركم بما سألتهم عنه غداً، ولم يستثن، فأنصرفوا عنه، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم -فيما يذكرون- خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من أمر الله الفتية والرجل الطواف^(١).

التوكل على الله تعالى واليقين به تعالى مع الأخذ بالأسباب في النجاة من الفتن، كما يتجلى لنا من خلال هذه القصة دور الحاكم العادل في حماية البلاد من شرور الفتن.

ثانياً: سبب نزول القصة:

ذكر ابن إسحاق: أن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود، وقالوا لهما: سلامهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم؛ فخرجوا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله، وقالوا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا؟

فقال لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم.

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول: ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب. وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها: ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك، فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

(١) هذه القصة رواها ابن إسحاق عن ابن عباس

قصة ذي القرنين

أولاً: بلوغه مغرب الشمس:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكْرًا ۝٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾ [الكهف: ٨٦-٨٨].

كانت له ثلاث رحلات رئيسة، والظاهر أنه انطلق من المشرق إلى رحلته الأولى جهة المغرب، حيث بلغ بجنوده أقصى الغرب مستعيناً بما هياه الله له من أسباب، وهدف الرحلة كما يظهر من خلال الآيات نشر الحق، وهداية الناس، وإقامة العدل، انطلق في رحلته حتى شاهد غروب الشمس، ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ عين ماء ذات حمأة، وقرئ ﴿فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ يعني: أنها تغرب في عين ماء حارة، تلك إشارة إلى نظر المؤمن وتمتعه بجمال الكون وروعته، فللنظرة الجمالية انعكاسها على جمال الحضارة، جمعت بين كونها حمئة وبين حرارتها^(١).

رضي الله عنه، كما في السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٣٢١. وأخرجها الطبري في تفسيره، ٥٩٣/١٧، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٦٩. (١) قرأ ابن عاصم وعامر وحمة والكسائي

﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦﴾: لما تمكن منهم، وخير في شأنهم: كان حكماً مقسطاً، إذ حكم على من بقي على الظلم بالعذاب، وعلى من اختار طريق الهداية بالخير والإحسان، فقال: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكْرًا ۝٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ذكر جزاء الله له في الآخرة ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة، ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاق عليه، بل قولاً ذائسراً وسهولة، قولاً ميسوراً.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكْرًا﴾ أي: يوم القيامة فيعذبه العذاب الشديد الأليم، الذي يحار العقل في أمره، لأنه لم ير مثله، ولا قريباً منه ليعتبره به^(٢).

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ

(حامية) أي: حارة، والباقون (حمئة) أي: كثيرة الحمأة، وهي الطينة السوداء، تقول: حمأت البئر حمأً بالتسكين إذا نزع حمأتها، وحمئت البئر حمأً بالتحريك كثرت حمأتها، ويجوز أن تكون حامية من الحمأة، فخففت الهمزة وقلبت ياء، وقد يجمع بين القراءتين، فيقال: كانت حارة وذات حمأة.

انظر: النشر في القراءات العشر، الجزري ٣١٤/٢.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٥٠٢/٤ بتصرف.

يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغره من أموالهم التي تنفيء عليهم، وحقوقهم التي يجمعها خزنتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفدتها المؤن، واستوفتها العوارض، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط:

١. ألا يستأثر بشيء عليهم.
٢. أن يبدأ بأهل الحاجة منهم فيعينهم.
٣. أن يسوي في العطاء بينهم على مقدار منازلهم.

فإذا فنيت بعد هذا ذخائر الخزانة وبقيت صفراً، فأطلعت الحوادث أمراً بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغن ذلك، فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير، وتصرف بأحسن تدبير.

فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال قال: لست أحتاج إليه، وإنما أحتاج إليكم فأعينوني بقوة، أي: اخدموا بأنفسكم معي، فإن الأموال عندي والرجال عندكم؛ ورأى أن الأموال لا تغني دونهم، وأنهم إن أخذوها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه، فعاد عليهم بالأخذ، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى^(٣).

الحسن^(١) أي: يستحق البشارة بها، فضلاً عن حسن معاملته في الدنيا، ﴿وَسَقُولُ لَكُمْ أَمْرًا يُسْرًا﴾ فهو أهلاً لكل فضل وسماحة.

«فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم العادل، ويكون من بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض، فسيلقى العذاب الرادع من الحاكم المقسط في الدنيا، ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأشد بما اقترفت يده في حياته الأولى»^(١).

وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً، ومكاناً كريماً، وعاوناً وتيسيراً؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والاستقامة والجد والاجتهاد، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون؛ فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد^(٢).

قال ابن العربي: «وعلى الملك فرض أن

(١) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ٣٠٥ بتصرف.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١٢/٤.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٢٤٣/٣.

ثانيًا: بلوغه مطلع الشمس:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۚ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝١١ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا ۝١٢﴾ [الكهف: ٩٠ - ٩٢].

بعد رحلة ناجحة بلغ فيها ذو القرنين أقصى الغرب، سلك طريقًا إلى أقصى الشرق ليواصل مسيرته في حمل بشائر الخير ونشر مشاعل النور.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝١١﴾ أي: أقصى الشرق وجدها تطلع على قوم ليس لهم ما يسترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، قيل: كانوا حفاة عراة لا يأوون إلى شيء من العماره؛ وقيل: لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقر عليها البناء، أو لما هم عليه من بداهة، وخلق من جميع مظاهر التمدن والرقى.

عن قتادة، في الآية قال: «ذكر لنا أنهم بأرض لا يثبت لهم فيها شيء، فهم إذا طلعت دخلوا في أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم»^(١).

ولا بد أنه رحمه الله وقد حمل مشاعل النور وراية الإصلاح قد ارتقى بتلك البلاد ونهض بها وألحقها بركب الحضارة، فرسالة العبد الصالح رسالة تنوير وتحرير، رسالة

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، ٩/ ٢٣٥.

إصلاح وتعمير، رسالة نهوض وتطوير. ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝١١﴾ أي:

لا يعزب ذو القرنين وجيوشه عن علمنا مهما بلغوا من أصقاع بعيدة وبلاذ نائية، ولا يخفى علينا تدبيره وسياسته، فهو مهما شرق أو غرب، في محيط ملك الله الواسع وسلطانه العظيم وتحت قهره وإرادته، وكل هذه البلاد البعيدة التي وصلها ذو القرنين: يعلمها الله تعالى فلا يخفى عليه من أحوالها خافية، وقد أحاط رب العالمين خبرًا بما لدى ذي القرنين من مواهب وملكات وطاقات وإمكانات تؤهله لارتداد الأقطار قائدًا مظفرًا وحاكمًا عادلاً.

فكما مكن الله تعالى له وهباً له الأسباب وأعانه على الأخذ به فهو تعالى مطلع عليه محيط بما لديه، خير بيوطن الأمور.

ولو شاء الله تعالى لأخبر عن قصته على وجه التفصيل، ولكنه تعالى ذكر شيئاً منها للعظة والاعتبار، فلا يتوهم أحد أن إيجاز القرآن واقتضابه مما يقدح فيه، بل هو من وجوه بلاغته ومراعاته لمقتضى المقام، فذكر من القصة ما فيه تذكرة، وأشار لذلك في البداية ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنهٗ ذِكْرًا﴾.

قال البقاعي: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا﴾ بما لنا من العظمة، ﴿بِمَا لَدَيْهِ﴾ أي: كله من الأمور التي هي أغرب المستغرب، ﴿خُبْرًا﴾ أي:

ثواب عظيم. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: طريقاً آخر غير الطريق الأولى، وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق.

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطرق المؤدية إلى مقصده، وكان ذو القرنين، على ما وقع في كتب التواريخ يدوس الأرض بالجيوش الثقال، والسيرة الحميدة، والإعداد الموفى، والحزم المستيقظ المتقدم، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة ولا مر بمدينة إلا دانت له، ودخلت في طاعته، وكل من عارضه أو توقف عن أمره جعله عظة وآية لغيره»^(٤).

فلا يزال يرتقي سلم النهوض والتقدم، ويجتهد في الأخذ بالأسباب وتنميتها، وفي تكرار هذه العبارة: ما يدل على حرص هذا القائد الرباني على الأخذ بالأسباب واجتهاده في تحصيلها وتطويرها وتطويرها لتحقيق الهدف، ونيل المراد.

ثالثاً: بلوغه بين السدين:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾^(١٣) قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا؟^(١٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ

من جهة بواطن أموره، فضلاً عن ظواهرها، فلا تستغرب إخبارنا عن ذلك، ولا عن أمر أصحاب الكهف، ولا يظن أن تفضيل أمر الوحي خفي عنا؛ لأننا مطلعون على خفايا الأمور وظواهرها، شواهدنا وغوايبها، وكيف لا ونحن أوجدنا، ولكننا لا نذكر من ذلك إلا ما نريد، على ما تدعو إليه الحكمة، فلو شئنا لبسطنا هذه القصة وقصة أهل الكهف، وفصلنا أمر الروح تفصيلاً يعجز عن حفظه الألباء»^(١).

«و﴿يَا لَذِيهِ﴾ ما عنده من عظمة الملك من جند وقوة وثروة. والخبر: العلم والإحاطة بالخبر، كناية عن كون المعلوم عظيمًا بحيث لا يحيط به علماً إلا علام الغيوب»^(٢).

قال أبو السعود: «وقد أحطنا بما لديه من الأسباب والعدد والعدد خبراً، يعني: أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير»^(٣).

فلما بلغ بلاد الشرق الأقصى قضى قضى فيهم بعدله وحكمته، كما قضى فيمن سبقهم من أهل الغرب، حيث دعاهم لدعوة الحق وأقام عليهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ثم عاقب الكفرة الظلمة، وسالم أهل الحق وكرمهم وقربهم وبشرهم بما عند الله من

(١) نظم الدرر ٤/ ٥٠٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٣٠.

(٣) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٤٤.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٠.

وَيَنْتَهُمُ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ أَتُؤْتِي زُبُرَ الْحَدِيدِ حَقًّا إِذَا سَاوَى بَيْنَ
الْصَّادِقِينَ قَالَ أَنْفَخُوا حَقًّا إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُؤْتِي
أُفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ
وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقَبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي
فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾

[الكهف: ٩٣ - ٩٨]

بعد أن ساهم في نهوض هذه الشعوب
البداية الفقيرة وتنويرها، توجه بهذا الخير
إلى موضع عبر عنه القرآن بأنه بين السدين،
منطقة يحيط بها جبلان شاهقان وعران،
حيث يتسلل المفسدون من قوم يأجوج
ومأجوج إلى البلاد المجاورة، يnehون
ثرواتها ويعيشون فيها فسادًا، فطلب أولئك
المستضعفون المنكوبون من ذي القرنين
أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا
عليه أن يبني سدًا منيعًا يحجزهم، على أن
يجمعوا له ما يشاء من أموال وثروات، وفي
هذا ما يدل على ثقتهم في أمانته وقدراته.

﴿حَقًّا إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا
قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾

وجد ذو القرنين من دون السدين
قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلَ قَائِلٍ سَوَى
كَلَامِهِمْ، وَلَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ أَحَدًا قَوْلَهُمْ،
مع ذلك تمكن من معرفة مطالبهم وفهمهم
وتفهمهم، بفضل ما وهبه الله تعالى من
أسباب. (١).

﴿قَالُوا يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ بَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْبًا عَلَى أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا﴾

عرضوا على ذي القرنين أن يعطوه من
أموالهم ما يستعين به على بناء السد، وأجرة
بنائه؛ ليحميهم من أولئك المفسدين على
سبيل حفزه وترغيبه، فقال لهم ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ
رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾:
أجابهم هذا القائد الزاهد والإمام الراشد
إلى مطلبهم دون مقابل، فهو صاحب رسالة
إصلاح يؤديها في ربوع الكون، فهل يطمح
في أعراض الدنيا الزائلة أم يجنح إلى همم
قاصرة؟ وقد وهبه الله تعالى من العلم
والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعة
وانقيادًا وعزمًا واجتهادًا في غرس بذور
الخير أينما حل.

«قال ذو القرنين: الذي مكنتني في عمل
ما سألتُموني من السد بينكم وبين هؤلاء
القوم ربي، ووطأه لي، وقواني عليه، خيرٌ
من جعلكم، وأجرتكم التي تعرضونها علي
لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني
منكم بقوة، أعينوني بفعلة وصناع يحسنون
العمل والبناء» (٢).

وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين
في هذه المحاورة، فإن القوم لو جمعوا له
خرجًا لم يعنه أحد، ولو كلوه إلى البنيان

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/١١٣ بتصرف.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/١٠٣.

ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله؛ لسمكه وصلابته.

قال بعد أن أتم البناء بإحكام وإتقان: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي رَقِي﴾ أي: هذا البنيان رحمة وفضل من الله الذي وهبني العلم ومنحني الملكات والطاقات، وهياً لي الأسباب حتى تم البناء الذي يحجز أولئك المفسدين ويحمي هؤلاء المستضعفين، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: مساوياً للأرض، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: كائنًا لا محالة. فأشار إلى مدة انتهاء صلاحية هذا الردم، وذلك عند تحقق الوعد الإلهي.

عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة، عن زينب بنت جحش رضي الله عنهن أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ من نومه وهو يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) الحديث (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم:

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، ٣٦٨/٢، رقم ٣٣٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، ٢٢٠٧/٤، رقم ٢٨٨٠.

ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربما أربى ما ذكره له على الخرج (١).

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ رَدْمًا﴾ يقول: أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردمًا، والردم: هو الحاجز، ولعله سمى السد الذي وعد بإنجازه ردمًا تواضعًا.

﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا﴾ أي: جيئوني بزبر الحديد، وهي جمع زبرة، والزبرة: القطعة من الحديد. فجعلها بين الصدفين، أي: حافتي الجبلين، حتى إذا ساءى بينهما بما جعل بينهما من زبر الحديد، قال للعمال: انفخوا النار، فنفخوا حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد نارًا ﴿قَالَ أَتُونِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾، أصب عليه قطرًا، والقطر: النحاس المذاب. وقد استخدمت هذه الطريقة حديثًا في تقوية الحديد؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، كما أن النحاس أملس؛ لا يمكن تسلقه، فهدي الله ذا القرنين إلى هذه الوسيلة الناجحة.

﴿فَمَا اسْطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقِبًا﴾ فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله ذو القرنين حاجزًا بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس لعلوه وملاسته،

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٦٠.

الدروس من قصة ذي القرنين

من الدروس والعبر التي تؤخذ من قصة ذي القرنين ما يأتي:

✽ من عوامل النهوض وأسباب الرقي: الأخذ بالأسباب المعينة على ذلك من الإيمان الخالص والعلم النافع والعمل الصالح، مع الإخلاص والتجرد والتوكل واليقين وعلو الهمة.

✽ العقيدة الصحيحة والإيمان الراسخ من صفات ذي القرنين، لاحظ كثرة ترديده لكلمة ربي، حتى لا تكاد تمر جملة إلا ويذكرها: ﴿تُذَكِّرْ إِلَىٰ رَبِّي﴾. ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾. ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي﴾. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾. ﴿١٩﴾، وفي هذا تعظيم لله ومحبة له، وترسيخ للعقيدة، وشكر وامتنان.

✽ في هذا نموذج يحتذى لخطاب الحكام والساسة، وترسيخ لمعاني الربوبية وتذكير بأثارها، وفيه ما يدل على محبة وتعظيم وعبودية وتسليم لله تعالى، فهو وإن قاد العالم لكنه ينقاد لخالفه وبارئه.

✽ خطاب الحاكم وكلماته لا بد وأن يعنى فيها بالترغيب والترهيب، ويذكر دائماً بأمور الآخرة لما في ذلك من بالغ الأثر في إصلاح القلوب وتهذيب النفوس

ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله عز وجل أن يبعثهم إلى الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، ويستثنى، فيعودون إليه وهو كهيته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشقون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهية الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغماً في أقفائهم فيقتلهم بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمد بيده، إن دواب الأرض لتسمن شكراً من لحومهم ودمائهم^(١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦٩/١٦، رقم ١٠٦٣٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، ١٣٦٤/٢، رقم ٤٠٨٠.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٤٥٢/١، رقم ٢٢٧٦.

الشعوب، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه.. إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين المستضعفين، ويدراً عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التغيير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق، وهكذا كانت الفتوحات الإسلامية في عهدها الأولى.

✽ العدل في العقوبة، فلا يتجاوز الحاكم حدود الشرع فيها، والإحسان في المكافأة والإثابة، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

✽ الحزم في الأمور من صفات القائد والحاكم، تأمل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا﴾ [الكهف: ٨٧].

✽ الأدب مع الله: ﴿وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرًا يَسْرًا﴾ لما ذكر ما أعد الله له من الحسنى جزاء لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل، بل اقتصر على القول أدباً مع الله تعالى، وإن كان يعلم أنه يحسن إليه فعلاً وقولاً.

✽ في تخيير ذي القرنين رحمه الله بين أن يعذبهم وبين أن يتخذ فيهم حسناً، ما يدل على ما كانوا عليه من ظلم

وحفز الهمم لثواب الآخرة.

✽ قيام الحضارات لا يتأتى بين عشية وضحاها؛ بل يأتي بعد جهد جهيد وصبر جميل وإعداد جيد وتخطيط محكم، والأمم إن لم تنهض وتتقدم، فإنها تتعاس وتتحلف.

✽ الحضارة الإسلامية تبعث في النفس روح النهوض والأمل، وتنمي ملكة الابتكار والتطوير، ويسعى المسلمون لنشر روح الحضارة والرقى في كافة بقاع الأرض ليعم الخير الجميع.

✽ ضرورة التخطيط الواعي المقترن بالتنفيذ المحكم لإصلاح البلاد والنهوض بها.

✽ حتى تصل رسالة التوحيد إلى الأمم والشعوب التي لم تصلها بعد لا بد وأن نكون أمة متحضرة متقدمة حتى يسمع العالم لنا، فهذا ذو القرنين يستمع العالم له ويشيد بعدله ويحتمي بسلطانه.

✽ في قصة ذي القرنين نموذج رائع ومثال واقعي للقائد الراشد والحاكم العادل والفاتح المؤيد، الذي يمكنه الله في الأرض، ويسر له الأسباب؛ فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ فلا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطفئ ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للكسب المادي، واستغلال الأفراد وابتزاز

بين، وصدِّ عن الحق، مما يستوجب معاقبتهم، وفي هذا ما يرشد إلى وجوب مجابهة الظالمين وكفهم عن ظلمهم.

✽ التيسير من مقاصد الشريعة ومظاهرها، وهو واجب شرعي على الحكام والمسؤولين، فينبغي مراعاته، سيما لمن هو أهله من أهل الصلاح والاستقامة، والتيسير في القول والفعل.

✽ من صفات الحاكم والقائد الرحمة، فالرحمة من كريم السمائل، ومن الواجبات والمقاصد الشرعية مهمة الحاكم تحقيقها ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

✽ الحاكم العادل يعطي الرعية أكثر مما تطمح إليه، حيث بنى لهم سداً منيعاً دون مقابل مادي.

✽ الحاكم المسلم لا بد وأن يكون مؤهلاً بمعارفه الواسعة وثقافته المتشعبة وفقهه بأمور الدين والحياة.

✽ أهمية تعلم اللغات للتفاهم والتواصل والتعاون مع الشعوب، عن ابن زيد رضي الله عنه، في قوله: ﴿وَأَنبِئْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَسِيًّا﴾، قال: «علماً، من ذلك تعليم الألسنة، كان لا يعرف قومًا إلا كلمهم

بلسانهم»^(١).

✽ الأخذ بالأسباب وإعداد العدة للأسفار البعيدة بما يناسبها.

✽ الهمة العالية والعزيمة القوية لبلوغ الأهداف.

✽ التأكيد على أهمية طلب العلم والتزود بالمعرفة، والسؤال عما يجهله الإنسان أو السؤال للتثبت من الإجابة، والسؤال هو المفتاح الثاني بعد القراءة لطلب المعارف والعلوم واكتشاف المجهول.

✽ حرص الحاكم القائد على نشر أصول الحضارة والمدنية في دائرة ملكه وخارجها.

✽ ضرورة إعداد الجيوش وتجهيزها بأحدث التقنيات مع إعداد الجنود والقادة، فلا سبيل إلى إزاحة الأنظمة المستبدة وحماية المستضعفين، وتمهيد طريق الدعوة، وتأمين المدعوين، ونشر العدالة والرحمة، إلا بالجهاد.

✽ من صفات الإمام العادل أنه حربٌ على أعداء الله وسلم لأوليائه الله، يذني أهل الطاعة ويواعد أهل المعصية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويذكر دائماً بفضل الله ورحمته، ومن واجبه أن يصون البلاد من كل مكروه.

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٣٠.

يوجعون ضرباً ويحبسون، أو يكفلون ويطلقون^(١).

❖ دفع الشر بأيسر ما يندفع به، ذلك أن ذا القرنين مع حزمه وقوته رأى أن بناء السد كافٍ في دفع أذى يأجوج ومأجوج دون الحاجة لإراقة الدماء.

❖ شكر المنعم وإجلاله والتواضع لعظمته والإقرار بفضلته: قال السعدي: «فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مولئها وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعمة الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله، كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. بخلاف أهل التكبر والتكبر والعلو في الأرض، فإن النعم تزيدهم أشراً وبطراً^(٢).

❖ ألا ما أحوج البشرية إلى الدعاة والمصلحين والقادة الراشدين، الذين يبددون ظلام الاستبداد، ويقطعون

❖ جمع إلى جانب العلم النافع والخبرة الدقيقة والمهارة الفائقة والإمكانات الهائلة: التواضع الرفيع والإيمان العميق والنفس الراضية العفيفة، والأيادي السخية النظيفة، والأريحية والشهامة: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾. لم يستغل حاجتهم في تجريدهم من الممتلكات والثروات، كما تفعله في عصرنا الحاضر الأمم الغالبة المتحضرة مع الشعوب المقهورة النامية، من نهب ثرواتهم وحصد خيراتهم وجني ثمارهم! والتأمر على بقائهم تحت وطأة الجهل ونير الاستبداد. ما فعل ذو القرنين كما تفعل تلك الدول التي ترهق الشعوب الفقيرة بالديون المركبة، تطوق بها أعناقهم وتلهب بها ظهورهم، وتنزع ولاءهم وخنوعهم! وترغم أنوفهم.

❖ في حبس ذي القرنين ليأجوج ومأجوج وراء الردم: دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، لمعاقبتهم ومنع شرهم وتقويم سلوكهم. قال القرطبي: في هذه الآية (آية السد) دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١ / ٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٦.

❁ السعي إلى غوث الملهوف ونصرة
المظلوم دون ترددٍ ولا تقاعس.
❁ أهمية الصناعات الثقيلة وأثرها في
حالة السلم والحرب.
❁ العلم والمعرفة والخبرات ملكٌ
للإنسانية ليس لأحد أن يحتكرها.
❁ ربط الأعمال كلها بمشيئة الله سبحانه.
❁ التعاون والعمل الجماعي يساعد في
إنجاز المهمات الكبرى.
❁ لا تزال هناك أممٌ متخلفة عن ركب
الحضارات، وقبائل تعيش في أصقاع
الأرض، في جزر نائية أو أدغال، أو
قمم جبال منعزلة تمامًا عن البشرية،
وتلك مسؤولية الشعوب والحكومات
المتحضرة أن تمد يد العون.

دابر الفساد، ويقيمون موازين القسط،
ويرفعون مشاعل النور، كما قال محمد
إقبال^(١):
فأين جحافل الأبطال منا
يضى مسيرها للسالكين
وتغبطها شعوبٌ أرهقتها
بالاستبداد أيدي الظالمين
❁ سرعة تحقيق العدالة وإنجاز الأعمال
التي تجلب المصالح أو تدفع المضار
للأمم والشعوب، فالعدالة البطيئة
ظلم، والتواني في إنجاز المشاريع
مفسدة عظيمة.
❁ السياحة في الأرض والتجوال فيها لا
بد وأن تكون هادفةً بناءةً ليس لمجرد
المتعة والتسلية، بل لنشر قيم العدالة
والخير.
❁ النظر والتأمل والاستمتاع بروائع الكون
وظواهره الخلابة، كمنظر الشمس
وهي تغرب، فيلتقي قرصها وهو آخذٌ
بالاحمرار مع زرقة البحار، في مشهد
يأخذ بالأبصار.
❁ السياحة في الأرض تؤدي إلى تلاقح
الأفكار وتبادل الخبرات، فضلًا
عن تقارب الأمم والشعوب ولقاء
الحضارات.

(١) ديوان محمد إقبال، مختارات من شعره ص
١٠٧، ٢٨، ٣.

ثمسات بيانية في قصة ذي القرنين

❖ حسن المطلع، ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]. فالبداية بالسؤال من بلاغة الاستهلال وروائعه، ومما يسترعي الانتباه ويلفت الأنظار، ويشوق النفوس، وفي الجواب شفاءً ووفاءً، بما يفي بحاجة السائل، «والتعبير بصيغة الاستقبال ﴿وَسْئَلُونَكَ﴾ لاستحضار الصورة الماضية؛ لما أن في سؤالهم على ذلك الوجه مع مشاهدتهم من أمره ما شاهدوا نوع غرابة، وقيل: للدلالة على استمرارهم على السؤال إلى ورود الجواب»^(١).

❖ ﴿قُلْ سَأَلْتُوْا عَلَيْهِمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قصة ذي القرنين جديرة بالمذاكرة والمدارسة لما فيها من عبر وعظات وحكم ومعانٍ وآدابٍ وشمائل، وفوائد للقادة والمصلحين والساسة والمربين والرعايا، فكان جديرًا بأن يذكر في أشرف الكتب ويتردد على مسامع خير الأمم، فهو أسوة للحكام قدوة للقادة إمامًا للمصلحين.

❖ بداية القصة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ﴾ من حسن المطلع

وروعة الاستهلال، إذ قبل الحديث عن ملك من أعظم ملوك الأرض يأتي الحديث عن ملك الملوك، فهو من وهب لذي القرنين هذا الملك العظيم ومكن له، فالتمكن من الله تعالى. والتعبير بنون العظمة دليل على عظمة الله تعالى وعظمة ما وهبه لذي القرنين من ملك وسلطان وتمكين في الأرض، قال البقاعي: «ولما كانت قصته من أدل دليل على عظمة الله، جلاها في ذلك المظهر فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا﴾ أي: بما لنا من العظمة، ﴿وَأَتَيْنَاهُ﴾ بعظمتنا»^(٢).

❖ بلاغة الربط بين الأحداث، وجمال الفواصل بينها ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾^(٣)، ﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبَبًا﴾^(٤)، ﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبَبًا﴾^(٥)، ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ﴾ تكرر مع كل رحلة، وانتهاء الفاصلة بالألف المدية من جمال القرآن الكريم. دقة القرآن الكريم في التعبير بالفاء ﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبَبًا﴾ و(ثم) في ﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبَبًا﴾ فالفاء تدل على الجدة والمبادرة إلى الأخذ بالمزيد من الأسباب، و(ثم) تدل على التراخي الزمني، بين هذه الرحلات.

❖ والتعبير بالفاء ﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبَبًا﴾ يشير إلى همة عالية وعزيمة قوية تأخذ

(١) روح المعاني، الألوسي ٢٤/١٦.

(٢) نظم الدرر ٥٠١/٤.

للاعتناء والتخصيص، وتأخير الحسنى للتشويق مع مراعاة الفاصلة، مع فصاحة التركيب.

❖ المقابلة بين الظلم والإيمان: والأصل المقابلة بين الإيمان والكفر؛ لأن الكافر لا يعاقب دنيوياً على كفره فحسب، بل يعاقب على ظلمه واعتدائه.

❖ دقة القرآن الكريم في ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا﴾، ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا﴾: قال البقاعي: «وزيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليه أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل»^(٢).

موضوعات ذات صلة:

التمكين، التطوع، الحضارة، السياسة، الفساد

الأمر بجِدٍّ، فلا توانٍ ولا تقاعس ولا تكاسل ولا تراخي عن الأخذ بأسباب التقدم والنهوض، أما التعبير بـ(ثم) مرتين ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيًّا﴾ فيشير إلى دأبه واستمراره على طلب المزيد.

❖ قدم العذاب الدنيوي على الآخروي لأن الكافر يرعوي وينزجر بالعقاب الدنيوي، بينما قدم ما عند الله على ما عنده؛ لأن نفوس المؤمنين تطمح لما لها عند رب العالمين وتستشرف هذا الثواب المدخر، وتشوف لنصيبتها في الآخرة.

❖ جاء التعبير بسوف: ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُمْ﴾ للدلالة على إمهاله لهم حتى تقام عليهم الحجج، فإن هم أصروا على كفرهم وظلمهم فقد استوجبوا العقاب، كما أن (سوف) أبلغ من السين، وفي ذلك إمعانٌ في تهديدهم إن لم يتوبوا، قال أبو حيان: «وأتى بحرف التنفيس في ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُمْ﴾ لما يتخلل بين إظهاره كفره وبين تعذيبه من دعائه إلى الإيمان وتأبيه عنه، فهو لا يعاجلهم بالقتل على ظلمهم، بل يدعوهم ويذكرهم، فإن رجعوا وإلا فالقتل»^(١).

❖ ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُسْرًا﴾ تقديم ﴿قَلَهُ﴾

(١) البحر المحيط ٦/ ١٥٦.

(٢) نظم الدرر ٤/ ٥٠٥.